نبذة عن حياة الرسول العظيم ﷺ

حالة جزيرة العرب عند مولد رسول الله

وُلد الرسول ﷺ في مكة في شهر آب/أغسطس سنة ٥٧٠ ميلادية. وسُمي محمدًا، ومعناه الشخص الذي هو محمود الصفات. ولكي نفهم حياته وأخلاقه، فلا بد من معرفة الظروف التي كانت سائدة في بلاد العرب وقت مولده.

عندما ولد الرسول ﷺ، كانت كل الجزيرة العربية مع بعض الاستثناءات هنا وهناك تدين بتعدد الآلهة. ويرفع العرب نسبهم إلى إبراهيم عليه السلام، ويعلمون أنه كان نبيًّا يُعلّم التوحيد، وعلى الرغم من ذلك فقد كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة، وكانوا مشركين يمارسون عبادة الأصنام. وفي معرض تبرير هذه الممارسات قالوا إن بعض الناس من البشر يتميّزون بخصائص مدهشة في صلتهم بالله تعالى، ولذلك يستطيعون أن يشفعوا لدى الله تعالى نيابة عن الآخرين، وتلقى شفاعتهم هذه قبولاً لديه. ثم إن الله متعال مجيد، ومن الصعب على الإنسان العادي أن يصل إليه، وإنما يستطيع ذلك الإنسان الكامل وحده. ولذلك، فالإنسان العادي يحتاج إلى وسيط من أولئك الأبرار ليتوسط لـــه لكي يقبله الله فينال مرضاته وعونه. وبهذه الأفكار استطاعوا أن يجمعوا بين إيمانهم واحترامهم لإبراهيم عليه السلام، وهو الذي كان موحِّدًا، وبين عقائد تعدد الآلهة لديهم. فإبراهيم عليه السلام كما

يقولون، كان رجلاً ربانيًا من الأبرار، وكانت لـــه إمكانية الوصول إلى الله تعالى بدون شفاعة وبغير وساطة. وأما أهل مكة العاديّون، ليس لديهم القدرة للوصول إلى الله بغير وساطة من أشخاص آخرين صالحين وربانيين. ولطلب هذه الشفاعة، صنع أهل مكة أصنامًا لكثير من أسلافهم الصالحين، وهؤلاء هم الذين عبدوهم، وقدّموا إليهم القرابين في سبيل إرضاء الله من خلالهم.

كان هذا مسلكًا بدائيًا وغير منطقي، وكان يشوبه الكثير من العيوب والثغرات، ولكن ذلك لم يقلق أهل مكة في شيء، فلم يكن لديهم نبي مُوَحّد لزمان طويل. وإذا ضرب مرض تعدد الآلهة بجذوره في مجتمع، فإنها تمتد فيهم بغير حدود، إذ يبدأ عدد الآلهة في ازدياد، ثم يستمر في التزايد. وقد رُوي أنه عندما وُلد الرسول ﷺ، كانت الكعبة وحدها، وهي المسجد الحرام والبيت العتيق الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل لعبادة الله تعالى، تحتوي ثلاثمائة وستين صنمًا. ويبدو أنهم قد جعلوا صنمًا لكل يوم من أيام السنة. وفي الأماكن الأخرى، وفي المراكز الكبرى غير مكة، كانت هناك أصنام أخرى. ولذلك، يمكننا القول إن كل أنحاء الجزيرة العربية كانت غارقة في العقائد الوثنية.

كان العرب مخلصين للثقافة الشفاهية، وكانوا يهتمون اهتمامًا شديدا بلغتهم المنطوقة، حريصين على رفع شأنها. غير أن طموحاتهم الفكرية كانت محدودة، ولم يكن لهم علم ولا دراية بالتاريخ ولا الجغرافيا ولا الرياضيات وغيرها. ولما كانوا من سكان الصحراء، كانوا يضطرون إلى التعرّف على طريقهم في تلك الصحارى دون

الاعتماد على علامات أرضية مستقرّة، ولذلك نما لديهم اهتمام شديد بالفلك. وفي كل الجزيرة العربية لم تكن هناك مدرسة واحدة، وقد قيل إن حفنة قليلة فقط من أهل مكة كانوا يعرفون القراءة والكتابة.

ومن الناحية الأخلاقية، كان العرب شعبًا متناقضًا. فقد كانوا يعانون من بعض العيوب الأخلاقية الفظيعة، ولكنهم في نفس الوقت كانوا يتّصفون ببعض الصفات الرائعة. فقد اعتادوا الإفراط في شرب الخمر إلى حد الثمالة، ومن الفضائل عندهم، وليس من الرّذائل، أن يسكر الإنسان ويتصرف بجموح تحت تأثير الخمر. وكان الرجل الشهم الكريم في اعتبارهم، هو من يستضيف أصدقاءه وجيرانه إلى حفل للسُكْر، وعلى الشخص الغني أن يقيم حفلا لشرب الخمر خمس مرات على الأقل كل يوم. أما القمار، فكان رياضتهم القومية، ولكنهم حوّلوه إلى فن دقيق. لم يقامروا ليكونوا أغنياء، بل كان على الفائزين أن يستضيفوا أصدقاءهم. وفي زمن الحروب، كانت تُجمع الأموال من خلال المقامرات. وحتى اليوم، نرى مؤسسات اليانصيب تجمع المال لأجل الحرب، وقد انتعشت هذه المؤسسات في عصرنا على يد شعوب أوربا وأمريكا؛ ولكن عليهم أن يتذكروا أنهم في هذا إنما يقلدون العرب قبل الإسلام فقط. وعندما تقع الحرب، كانت القبائل تجتمع وتقيم حفلات المقامرة، وأيًّا كان الفائز فعليه أن يتحمل القسط الأكبر من تكاليف القتال.

لم يكن العرب يعرفون شيئًا عن وسائل الترفيه للحياة المتحضرة، وإنما كانوا يجدون تعويضًا في الخمر والميسر. وكانت التجارة هي

مهنتهم الأساسية، فكانوا يرسلون قوافلهم إلى جهات بعيدة للتجارة؛ فتاجروا مع الحبشة والشام وفلسطين، وكانت لهم علاقات تجارية حتى مع الهند. وكان الأغنياء منهم يُعجَبون بالسيوف الهندية إعجابًا كبيرًا، وأما ملابسهم فكانت تأتي أساسًا من اليمن والشام.

كانت المدن هي مراكز التبادل التجاري. أما بقية بلاد العرب، عدا اليمن والأجزاء الشمالية، فكانت بادية، ليس بها استقرار دائم، ولا أماكن ثابتة للسُكنى. وقد اقتسمت القبائل المختلفة هذا الوطن فيما بينها، بحيث يستطيع أعضاء القبيلة أن يتجَوّلوا ما شاء لهم التجوال في المنطقة التي تخصهم من البادية. وعندما يشحّ الماء في مكان ما، كانوا يرتحلون إلى مكان آخر غيره ليستقروا فيه. رأس مالهم الغنم والماعز والإبل، ومن الصوف والوبر صنعوا الملابس، ومن جلود الأنعام صنعوا الخيام، وما زاد عن حاجتهم باعوه في الأسواق. كانوا يعرفون الذهب والفضة، ولكن مقتنياتهم منها كانت نادرة. والفقراء والعامة من الناس صنعوا الحلي من الوَدع والمواد ذات الرائحة العطرة، كما ثقبوا بذور البطيخ وجففوها بعد تنظيفها، ونظموها معًا ليجعلوها عقودًا وقلائد.

كانت الجريمة والانحرافات الأخلاقية من أنواع مختلفة متفشيةً. السرقة كانت نادرة ولكن السطو والغزو كان شائعا. فالهجوم على الآخرين وسلبهم كان يعتبر حقا مكتسبًا. ولكنهم في نفس الوقت احترموا كلمتهم أكثر من أي شعب آخر، وحين يلجأ إنسان إلى زعيم قوي أو قبيلة طالبًا الحماية، فإن ذلك القائد أو تلكم القبيلة كانت مُلزَمة بحمايته بموجب تقاليد الشرف، وإلا فقدت القبيلة سمعتها

في جميع بلاد العرب. وقد تمتع الشعراء بمكانة خاصة بين العرب، فكانوا يلقون الشرف والمجد والإعزاز كالزعماء الوطنيين. وكان يُنتظر من الزعماء أن يكونوا بلغاء في الحديث، أو أن يملكوا القدرة على نظم الشعر. وكان كرم الضيافة تقليدًا ذا شأن لديهم حتى صار فضيلة عظيمة، وعندما يصل المسافر الغريب إلى رئيس القبيلة، كان يُعامل معاملة الضيف الشريف؛ فتُعد لـــه أفضل الذبائح، وتُقدم لـــه كل آيات الاحترام. لم يكونوا يهتمون بشخصية الزائر، إذ يكفي أن زائرًا قد وصل إليهم؛ فالزيارة تعني شرفًا للقبيلة ورفعة في المكانة، ومن ثم ينبغي على القبيلة أن تحتفي بالزائر وتكرمه، فإكرامه يعتبر إكرامًا لأنفسهم.

ولم يكن للمرأة في هذا المجتمع العربي مكانة عالية، ولا حقوق مرعية. وكان يُعد وأد البنات عملاً شريفًا لدى بعض العرب. غير أنه من الخطأ الظن أن عادة كهذه كانت واسعة الانتشار في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، لأن تقليدًا كهذا لا يمكن أن يتسع نطاق ممارسته في أي بلد، وإلا أدّى هذا إلى انقراض أهل ذلك البلد. والحقيقة أنه في الجزيرة العربية، كما هو الحال في الهند، وفي كل بلد آخر يمارس قتل الأطفال، كان هذا الفعل محصورًا في أسر قليلة. وكانت هذه الأسر تبالغ في تصوّرها عن تدني وضعها الاجتماعي، أو أنها كانت تعاني من بعض الظروف الصعبة، أو ربما كانوا لا يستطيعون العثور على أزواج يناسبون بناتهم. وتحت تأثير هذه الأفكار دفعوا أطفالهم للموت. إن قبح هذا التقليد يكمن في قسوته وبدائيته، وليس في نتيجته المؤثرةعلى

تعداد السكان. وقد استُخدمت طرق كثيرة في قتل البنات الوليدات؛ منها خنقهن ودفنهن أحياءً.

كان المجتمع العربي يعتبر أن الأم هي التي ولدت الإنسان، أمّا زوج الأب فلم تعتبر أُمًّا، ولم يكن هناك مانع يمنع المرء من أن يتزوج مثل هذه الأم عندما يموت أبوه. أما تعدّد الزوجات فكان شائعًا على نطاق واسع، ولم يكن هناك حدّ لعدد الزوجات المسموح بهن للرجل. وكان يمكن للرجل أن يجمع بين الأخوات في نفس الوقت.

وأسوأ أنواع المعاملة كانت تتوقع من الطرفين المتحاربين بعضهما على بعض. وعندما تشتد البغضاء لم يترددوا في تمزيق أجسام الجرحى، بل واستخراج أجزاء منها وأكلها، شأن أكلة لحوم البشر، بالإضافة إلى تشويه جثث الأعداء، وكان من أشكال القسوة لديهم شيوع قطع الأنوف والآذان واقتلاع الأعين.

كان الرق منتشرًا، وكان أفراد القبائل الضعيفة يُؤخذون عبيدًا. ولم يكن للعبد وضع اجتماعي يحفظ كرامته كإنسان، إذ كان السيد يفعل مع عبده ما يشاء، ولم يكن هناك من إجراء يمكن اتخاذه ضد السيد الذي يسيء معاملة عبيده، بل إن السيد يمكنه قتل عبده دون أن يتعرّض للمساءلة. وإذا قام سيد بقتل عبد مملوك لسيد آخر فإنه حتى في هذه الحالة لا يتعرّض لعقوبة القتل، وكل ما كان عليه هو أن يعوّض السيد مالك العبد المقتول بشكل مادّي مناسب. أمّا الإماء فكن يستخدمن في إشباع الشهوات الجنسية، وكان الأطفال المولودون من هذه العلاقة يعتبرون عبيدًا، وكذلك الأم الأمَة كانت تظل أمَة.

وأما باعتبار العلاقات الاجتماعية وتقدم المجتمع الإنساني، فقد كان العرب شعبًا متخلفًا. إذ لم يكن للتعاطف ومراعاة مشاعر الآخرين وجود، وكان للنساء أسوأ اعتبار ممكن. ورغم ذلك، فقد كان العرب لا يزالون يحتفظون ببعض الفضائل؛ فالشجاعة الفردية على سبيل المثال، بلغت أحيانًا مستويات بالغة السمو والرفعة.

ولقد ولد رسول الإسلام ﷺ بين هؤلاء الناس. مات أبوه عبد الله قبل أن يولد، فتولى جده عبد المطلب رعايته هو وأمه. وتولت إرضاعه امرأة كانت تعيش في مكان بالقرب من مدينة الطائف، وكانت هذه عادة عربية في ذلك الوقت؛ أن يسلموا الأطفال للمرضعات في البادية حيث الخلاء، وحيث يكون من واجبهن تربية الطفل وتعليمه الكلام الفصيح. وهناك يكتسب الطفل جسمًا سليمًا صحيحًا في بداية حياته.

وعندما بلغ الرسول ﷺ السادسة من عمره، صحبته أمه في رحلة إلى المدينة، وماتت أثناء عودتها حيث دفنت في الطريق، وقامت الخادمة باصطحاب الطفل إلى مكة، وأسلمته إلى جده. ولما بلغ الرسول ﷺ الثامنة توفي جده كذلك، حيث تولى عمه أبو طالب كفالته من بعده حسب وصية الجد.

ولقد أتيحت للنبي ﷺ فرصتان أو ثلاث للسفر خارج الجزيرة العربية، الأولى عندما كان في الثانية عشرة، إذ صحب عمّه أبا طالب إلى الشام، ويبدو أن الرحلة وصلت به فقط إلى المدن الواقعة جنوب شرقي الشام، لأن المصادر التاريخية لهذه الرحلة لم تذكر أماكن مثل "بيت المقدس". وقد ظل في مكة منذ ذلك الوقت إلى مشارف

الرجولة.

ومنذ طفولته المبكرة كان يخلد إلى التأمل العميق والتفكير الطويل. ولم يكن ينحاز إلى جانب أحد في المنافسات والصراعات التي تحدث بين الآخرين، إلا أن يتدخل لفضها. ويُرْوَى أن قبائل مكة وما حولها، بعد أن ملّوا الصراعات الدموية التي لا تنتهي، قرّروا أن يعقدوا حِلفًا يهدف إلى مساعدة ضحايا العدوان والمعاملة الظالمة، وعندما سمع به الرسول ﷺ انضم إليه. وقد تعهد أطراف هذا الحلف بأنهم سوف يساعدون أولئك الذين تعرضوا لظلم، وسوف يردّون إليهم حقوقهم، طالما بقيت قطرة من ماء في البحار، وإن لم يفعلوا ذلك فإنهم سوف يُعوّضون المظلوم من مالهم الخاص. (راجع الروض الأُنُف للإمام السُهيلي).

ولا يبدو أن أحدًا من الأعضاء الآخرين في هذا الحلف قد طُلب منه أن يفي بما التزم به في هذا الميثاق الجليل، ولكن جاءت الفرصة بعد أن أعلن الرسول ﷺ عن رسالته ونبوّته. كان أبو جهل هو عدوّه اللدود، كما كان أيضا أحد الرؤساء الكبار في مكة، وكان يدعو إلى مقاطعة الرسول ﷺ واضطهاده. وفي ذلك الوقت جاء رجل من البدو إلى مكة، وكان لـــه دَيْن مالي على أبي جهل، ولكن أبا جهل رفض أن يؤدي للرجل ما عليه من حق، فاشتكى الرجل لبعض أهل مكة. وانتهز بعض الشباب الفرصة لخلق الأذى للرسول ﷺ ووضعه في موقف صعب، فنصحوا الرجل أن يذهب إلى محمد ليشكو لـــه، ظانّين أنه سيرفض مساعدته خوفًا من المعارضة الشاملة التي قوبلت بها دعوته بوجه عام، وخوفًا من معارضة أبي جهل بوجه خاص. فإذا

رفض الرسول ﷺ مساعدة الرجل، فسوف يُقال إنه نقض عهده الذي قطعه على نفسه في حلف الفضول، وإذا لم يرفض وذهب بالفعل إلى أبي جهل لمطالبته بسداد ديْن الرجل، فمن المحتّم أن يطرده أبو جهل باحتقار وازدراء. وقد ذهب الرجل إلى الرسول ﷺ فعلاً وشكا لـــه أبا جهل، فلم يتردد الرسول ﷺ لحظة واحدة، بل نهض في التوّ وذهب مع الرجل إلى أبي جهل ودق عليه الباب، فخرج أبو جهل ورأى دائنه يقف بجانب الرسول ﷺ. وذكر الرسول ﷺ موضوع القرض وأمره بسداده. وكأن أبا جهل قد أُخذ على غرّة، فإذا به يقوم بسداد القرض على الفور دون أن يحاول التذرّع بأية حجة لعدم السداد. وعندما سمع رؤساء مكة الآخرون بذلك، راحوا يوبّخون أبا جهل ويؤنّبونه على ضعفه البالغ وتناقضه الذي أوقع نفسه فيه، إذ أنه يحضّ الجميع على مقاطعة محمد ﷺ، بينما يقوم هو بطاعة أمره ويسدّد القرض الذي عليه. فقال أبو جهل دفاعًا عن نفسه: إن أي شخص آخر كان سيفعل نفس ما فعله هو، وأخبرهم أنه لما رأى محمدا واقفًا على بابه، رأى جملين متوحشين يتأهبان لمهاجمته ويقفان عن يمين محمد وعن شماله.

ونحن لا يمكننا أن نقول شيئًا عن كُنه هذه التجربة. هل كان تجليًا لكشف إعجازي قصد الله به إلقاء الرعب في قلب أبي جهل، أو أنه كان خوفًا أصابه به جلال محضر الرسول ﷺ فأثار لديه هذه الهلوسة؟ فها هو رجل تكرهه البلدة كلها وتضطهده، ومع ذلك تدفعه الشجاعة أن يذهب هكذا وحده إلى زعيم هذه البلدة، ويأمره بسداد

دِيْنه. ولعل هذا المشهد غير المتوقع هو الذي أخاف أبا جهل وأذهله للحظات، فنسي قسَمه الذي أخذه على نفسه أن يفعل كل ما هو ضد أمر محمد ﷺ، وجعله الآن يفعل ما أمره به (انظر ابن هشام).

زواج رسول الله من السيدة خديجة

عندما بلغ الرسول ﷺ الخامسة والعشرين من عمره، كانت سمعته قد شاعت في المدينة كلها بالأمانة والصدق والعطف على الناس وكمال أخلاقه. كان الناس يشيرون إليه بأصابع التعجب قائلين: ها هو الرجل الذي يمكن أن نأمنه وأن نثق به. وبلغت هذه السمعة آذان أرملة غنية، فتقدمت إلى عمه أبي طالب ليأذن لـــه بقيادة قافلة تجارية لها إلى الشام. وذكر أبو طالب ذلك للرسول ﷺ فوافق، ولقيَت هذه الرحلة نجاحًا كبيرًا، وحقّقت ربحًا فاق جميع التوقعات. وشعرت السيدة خديجة أن هذا النجاح لم ينشأ عن ظروف السوق في الشام، بل رأت أيضًا أنه جاء بسبب حُسن تصرّف وأمانة وكفاءة قائد القافلة. وسألت مملوكها "ميْسرة" عن ذلك، فأيّد لها ميْسرة وجهة نظرها، وأخبرها أن أسلوب محمد العطوف والأمين في إدارة العمل شيء لم ير لـــه مثيلاً من أيّ شخص آخر. وكان لحديث ميْسرة تأثير شديد عليها. كانت السيدة خديجة في الأربعين من عمرها، وقد ترمّلت مرتين حتى الآن. فأرسلت امرأة من صديقاتها إلى محمد ﷺ لاستطلاع ما إذا كان من الممكن إقناعه بالزواج منها. فقامت هذه المرأة بزيارة الرسول ﷺ وسألته عن سبب عزوفه عن الزواج، فأجابها

بأنه لا يملك مالاً يكفيه ليتزوج. فسألته المرأة عما إذا كان يقبل الزواج لو أنه وجد امرأة غنية شريفة. فسأل محمد ﷺ عمّن تكون تلك المرأة، فقالت إنها خديجة. وهنا اعتذر الرسول ﷺ قائلاً إنها أعلى من أن تقبل الزواج منه. فقالت المرأة إنها سوف تتكفل بتذليل كل الصعوبات، وحينئذ أبدى الرسول ﷺ موافقته على الزواج. فأرسلت خديجة بالأمر إلى عمه، وتم عقد الزواج بينهما.

وهكذا فُتح باب عجيب إلى الازدهار ليدخل منه رجل فقير كان يتيمًا في طفولته، ولقد صار الآن غنيًا، ولكن الأسلوب الذي اتخذه إزاء هذا الغِنى صار مثلاً يُحتذى لكل الإنسانية. فبعد الزواج، شعرت السيدة خديجة أنه ليس مما يعزز سعادتها أن يظل هو فقيرًا بينما هي غنية. لذلك عرضت نقل ملكية الثروة التي تملكها إليه، وكذلك مماليكها من العبيد. ولما تأكّد الرسول ﷺ أنها جادة في قرارها، أعلن أنه حالما تصير إليه ملكية أحد من عبيد خديجة فإنه سوف يطلق سراحه حُرًّا، ولقد فعل. بل هناك ما هو أكثر، لقد وزّع الجزء الأكبر من الثروة التي آلت إليه بين الفقراء. وكان من بين العبيد الذين حرّرهم واحد اسمه زيد، كانت تبدو عليه ملامح الذكاء الحاد واليقظة أكثر من الآخرين. لقد كان ينتمي إلى أسرة محترمة، اختُطف منها طفلاً وبيع كعبد مرارًا حتى بلغ مكة. وقد أدرك هذا الشاب لفوْره، بعد أن نال حريته أخيرًا، أن من الأفضل لـــه أن يُضحّي بهذه الحرية في سبيل أن ينال العبودية عند محمد ﷺ. وعندما أعتق الرسول ﷺ عبيده، رفض زيد الحرية، وسأله مُلِحًّا أن يستبقيه ليظل إلى جواره.

ولقد استجاب الرسول ﷺ لرغبة زيد، ومع مرور الوقت ازداد تعلقه بالرسول ﷺ. في ذلك الوقت كان والد زيد وعمه قد اقتفيا أثر الابن المخطوف، وسمعوا أنه في مكة. وهناك تتبعا أثره حتى بيت الرسول ﷺ، فأتوا إليه وطلبوا منه أن يعتق زيدًا، وعرضوا عليه أن يدفعوا لـــه الفدية التي يطلبها. فقال الرسول ﷺ إن زيدًا حر، ويمكنه أن يذهب معهم متى شاء. واستدعى زيدًا وقدّمه لأبيه وعمه، وبعد لقاء الأحضان والعناق والبكاء ثم تجفيف الدموع، أخبره أبوه أن سيده الكريم قد وهبه حريته، وأن عليه أن يستعد للعودة معه، فقد تألمت أمه كثيرًا بسبب فراقه. فأجاب زيد: من ذا الذي لا يحب والديه يا أبتاه؟ إن قلبي مليء بحبك أنت وأمي، ولكنني أحب هذا الرجل حبًّا لا أتصور معه الحياة في أي مكان بدونه. لقد لقيتك وإني سعيد بهذا اللقاء، ولكني لا أطيق مفارقة محمد. وقد بذل الوالد والعم جهدهما لإقناع زيد بالذهاب معهما، ولكن زيدًا رفض. وإزاء ذلك قال الرسول ﷺ إن زيدًا كان رجلاً حُرًّا قبل هذه اللحظة، ولكنه منذ ذلك اليوم فإنه يُعتبر ابنه، يرث كل منهما الآخر. وأمام هذه الرابطة العاطفية الجياشة بين زيد والرسول ﷺ، غادر والد زيد وعمه المكان عائدين، وبقي زيد مع الرجل الذي سيُبعث نبيًّا ﷺ.

رسول الله يستقبل أول بشائر الوحي

عندما اجتاز الرسول ﷺ الثلاثين من عمره، أخذ حُب الله ﷻ وحُب التعبّد لـــه يشتد ويزداد مع الوقت. ولما كانت نفسه تأنف

الفساد الشائع في مكة، وتنفر من الآثام وسوء أعمال الناس، اختار بقعة تبعد ميلين أو ثلاثة، يخلو فيها مع نفسه للفكر والتأمل. وكان ذلك في كهف على قمة جبل، وكانت السيدة خديجة تُعدّ لـــه ما يكفيه من زاد للأيام العديدة، فيأخذه ويصعد إلى الغار في جبل حِراء، حيث كان يعبد الله نهارًا وليلاً.

وعندما بلغ الأربعين من عمره الشريف، رأى في ذلك الكهف العتيد ظهورًا لشخص يأمره أن يقرأ، فأجاب الرسول ﷺ أنه لا يعرف كيف يقرأ، فأصر هذا الشخص أن يقرأ، ثم جعله يقرأ الآيات التالية:

﴿اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ منْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق:٢-٦)

هذه الآيات هي أول ما أُوحي إلى الرسول ﷺ، وقد صارت جزءًا من القرآن المجيد، شأنها شأن الآيات الأخرى التي أوحيت إليه فيما بعد. وكانت تحمل معاني عظيمة وعديدة. لقد أهابت بالرسول ﷺ أن ينهض وأن يكون على أهبة الاستعداد لأن يُعلن على العالم اسم الله الأحد، الخالق الأوحد، الذي خلق الرسول وكل كائن آخر، الذي فطر الإنسان وغرس في طبيعته محبة الله تعالى، كما جعل في فطرته أيضًا حب أبناء جنسه. لقد أُمر الرسول أن يبلغ رسالة هذا الإله الأحد، وتلقّى وعدًا بالعون والحماية من الله تعالى عند تبليغ هذه الرسالة. وتنبأت الآيات بمجيء عصر يتعلم فيه العالم كله جميع أنواع المعارف بمساعدة القلم، وسوف يطّلع الإنسان على علوم لم يسمع بها

أحد من قبل.

وتُشكّل هذه الآيات خلاصة شاملة للقرآن المجيد. وكل ما تَعلمه الرسول ﷺ من الوحي اللاحق فهو كامن كالجنين في هذه الآيات. لقد تم فيها وضع أساس عظيم للتقدم والرقي الروحي لم يكن معروفًا حتى ذلك اليوم. إن شرح ومعاني هذه الآيات سوف يأتي ذكرها في مكانه من هذا التفسير. ونحن نشير إليها هنا لأنّ تنْزيلها على الرسول ﷺ شكّل حدثًا عظيمًا طرأ على حياته، فحينما نزلت عليه الآيات امتلأ قلبه بالخوف من هذه المسؤولية التي ألقاها الله على عاتقه. إن أيّ شخص آخر في مكانه كان سيشعر بالفخر، ويملؤه الإحساس بأنه صار عظيمًا. ولكن الرسول ﷺ كان أمره مختلفًا، إذ كان يفعل أشياء عظيمة دون أن يفتخر بإنجازه. وبعد هذه التجربة العظمى التي مر بها في الغار، بلغ الرسول ﷺ منْزله عائدًا وهو شاحب الوجه، يرتجف بقوة. ولما سألته السيدة خديجة عمّا ألَمّ به، قصّ عليها كل ما حدث، ثم أفصح لها عن مخاوفه لأنه كان يعتبر نفسه ضعيفًا، وتساءل كيف يحمل هذه المسئولية التي حمله الله إياها، وأنه لذلك كان يخشى على نفسه. فأجابت السيدة خديجة لتوها:

"كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا. إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ" (البخاري، كتاب بدء الوحي).

وصحبته إلى ابن عمها ورَقة بن نوفل، وكان نصرانيًا. فلما سمع الخبر صاح قائلاً: "هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى" (البخاري،

كتاب بدء الوحي). ومن الواضح أن ورَقة كان يشير بكلمته هذه إلى نبوءة سفر التثنية (١٨:١٨).

المؤمنون الأوائل

عندما بلغت الأنباء زيدًا بن حارثة، مملوك الرسول ﷺ الذي حرّره وتبناه، وكان قد بلغ الثلاثين من عمره، أعلن زيد إيمانه به، كما آمن به أيضًا ابن عمه عليّ ابن أبي طالب، الذي كان في الحادية عشرة من عمره. أما أبو بكر.. صديق طفولته، فقد كان خارج مكة، ولما عاد سمع بما كان من أمر الرسول ﷺ، وقيل لـــه إن صديقه قد أصابه الجنون، فراح يدّعي أن الملائكة تأتيه برسائل من عند الله.

كان أبو بكر يثق بالرسول ﷺ كل الثقة، ولم يشكّ لحظة واحدة في صدقه، فقد عرفه عاقلاً صادقًا. فذهب يدقّ بابه، ولما أُذن لـــه بالدخول على صديقه سأله عما حدث. وبدأ الرسول ﷺ في شرح مطوّل، لخشيته أن يسيء أبو بكر الفهم، فأوقفه أبو بكر قائلاً إن كل ما يريده أن يعرف ما إذا كان حقًّا قد نزل إليه مَلَك من عند الله يحمل لـــه رسالة. وأراد الرسول ﷺ أن يشرح الأمر ثانية، لكن أبا بكر قال إنه لا يريد أن يسمع شرحًا، لكنه يبتغي فقط إجابة على سؤاله عن الرسالة التي يحملها من الله. فأجاب الرسول ﷺ: "نعم". عند ذلك أعلن أبو بكر لفوره أنه يؤمن به. ثم قال بعد أن شهد بصدق الرسول ﷺ إن مناقشة الأمر كانت ستقلل من قيمة إيمانه، فقد كانت معرفته بالرسول ﷺ طويلة وحميمة، فما كان ليشك في صدقه،

ولذلك لم يكن في حاجة إلى أيّ دليل آخر يقنعه بصدق هذا الصديق الصدوق.

هذه المجموعة الصغيرة من المؤمنين الأُوَل هي التي بدأ بها تاريخ الإسلام: امرأة بلغت من العمر مبلغًا، وصبي في الحادية عشرة من عمره، وعبد محرر يعيش غريبًا عن وطنه، وصديق شاب، بالإضافة إلى الرسول ﷺ. هذا هو الفريق الذي عقد العزم في هدوء أن يبدّد الظلام وينشر النور الإلهي في العالم كله. ولما سمع بذلك أهل مكة وقادتهم ضحكوا، وقالوا إن هؤلاء قد أصابهم الجنون. لم يكن هناك ما يدعو للخوف أو القلق، ولكن مع مرور الوقت، بدأ فجر الحقيقة يُشرق. وبدأ الوحي يتنَزّل على الرسول ﷺ، كما سبق أن قال إشعياء النبيّ منذ زمان طويل:

"فكان لهم قول الرب أمرا على أمر، أمرا على أمر، فرضا على فرض، فرضا على فرض، هنا قليلا هناك قليلا، لكي يذهبوا ويسقطوا إلى الوراء وينكسروا ويُصادوا فيؤخذوا." (إشعياء ٢٨: ١٣)

اضطهاد المؤمنين

بدأ الله تعالى يكلم محمدًا ﷺ "بلسان آخر"، كما تنبأ إشعياء النبيّ، وبدأ شباب البلدة يعجبون. وأخذ أولئك الذين يعنيهم البحث عن الحقيقة يولون الانتباه لما يجري وما يُقال. ومن الاحتقار والسخرية بدأ الإعجاب والتأييد يتزايدان، وبدأ العبيد المطحونون، والنساء اللاتي لا حقوق لهن، والناشئون من الفتية والشباب يلتفون حول الرسول ﷺ،

فقد كان في رسالته وتعاليمه أمل للحزانى والمكلومين. واستبشرت النساء أن الوقت قد حان لاستعادة حقوقهن، وراود العبيد الأمل أن زمن الحرية قد أتى، ورأى الشباب أن طرق التقدم والازدهار سوف تنفتح لهم. وعندما أخذ الاحتقار يتحوّل إلى تأييد، وتنقلب اللامبالاة إلى اهتمام، بدأ قادة مكة وأعيانها يغشاهم الخوف، فاجتمعوا وتشاوروا، وقرروا أن السخرية ليست هي الطريق الأمثل لمواجهة هذا التهديد الجديد، وأن الأمر يتطلب حلاً أكثر حزمًا وجدّية، فلا بد من قمع هذا النفوذ الجديد بالقوة. وتقرر أن الطريق الذي ينبغي انتهاجه هو الكثير من الاضطهاد وبعض المقاطعة. وعلى الفور بدأوا في اتخاذ خطوات عملية لتنفيذ ما اتفقوا عليه، وهكذا دخلت مكة في صراع خطير ضد الإسلام. ولم يعد أحد بعد ذلك ينظر إلى الرسول ﷺ وأتباعه القليلين كحفنة من المجانين، بل صار يُنظر إليهم على أنهم أصحاب نفوذ جديد يتنامى ويتصاعد، وإذا تُرك ينمو دون إخماد فسوف يتحوّل إلى خطر كاسح، يهدّد دين مكة وهيبتها وعاداتها وتقاليدها.

لقد هدد مبدأ الإسلام لله خواءهم الفكري كله، فتراءَى لهم أنه سيهدم بناء المجتمع المكّي ويعيد خلق سماء جديدة وأرض جديدة، مما يعني اختفاء سماء الجزيرة العربية القديمة وأرضها البالية، وخلق نظام جديد. ولم يعد أهل مكة يسخرون من الإسلام، فلقد كان هذا هو التحدّي الذي يعني الموت أو الحياة بالنسبة لهم. كان الإسلام يتحدّى، وقد قبل أهل مكة التحدّي كما قبل كل أعداء الأنبياء تحدّي أنبيائهم. وقد قرروا أنهم لن يقابلوا الحجة بالحجة، بل يسلوا السيوف ويقمعوا

الدين الجديد بالقوة الغاشمة. إنهم لن يضارعوا المثل العليا التي يقدمها الرسول ﷺ وأتباعه بمُثُلٍ أعلى منها، ولن يجيبوا على كلمات المودَة والسلام بمثلها أو بأحسن منها، بل بإساءة معاملة الأبرياء وظلمهم، وبإيذاء أولئك الذين يخاطبونهم بالحكمة والموعظة الحسنة ويدعونهم بالتي هي أحسن. وهكذا، بدأ الصراع مرة أخرى في هذا العالم بين الإيمان والكفر، وأعلنت قوى الشيطان الحرب على الملائكة.

كان المؤمنون لا يزالون حفنة، ولا قوة لهم على مقاومة هذه الحملة الشرسة من العنف والإرهاب. ولقد بدأت حملة وحشية عليهم، كانت النساء تُسفك دماؤهن بلا حياء، ويُذبح الرجال بلا رحمة. أما العبيد الذين أعلنوا إسلامهم، فقد سُحِلوا على الرمال الحارقة والصخور الملتهبة، وغطت جلودهم طبقة ميّتة من البشرة حتى صارت مثل جلود الحيوان. وبعد انقضاء وقت طويل، عندما انتشر الإسلام في البقاع القريبة والبعيدة، كان واحد من المؤمنين الأوائل، وهو خبّاب بن الأرَتّ، يكشف عن أجزاء من جسده فيرى أصدقاؤه جلده متصلّبًا كجلد الحيوان، فلما يسألونه عن السبب كان يجيب ضاحكًا: "لا شيء، إنها ذكرى لتلك الأيام الأولى عندما كان العبيد المؤمنون يُسحلون في طرقات مكة على الرمال والحجارة الحارّة." (المسند جزء ٥ صفحة ١١٠).

لقد جاء العبيد الذي آمنوا بالإسلام من كل المجتمعات. فكان بلال حبشيًا، وكان صُهيْب روميًا. وكانوا ينتمون من قبل لعدة أديان، فكان صُهيْب نصرانيًا، وبلال وعمّار كانا وثنيين. وكان بلال يوضع على الرمال الحارقة، وتُوضع على بدنه أحجار ثقيلة، ويرقص الصبيان على

صدره، ثم يأتي سيده أميّة بن خلف ليعذبه بالسوْط، ويأمره أن يتبرأ من الله ورسوله محمد، ويشيد بحمد آلهة مكة: اللات والعُزّى. غير أن بلال لا يزيد عن قوله: "أَحدٌ، أَحد". ولما يفيض بأميّة الغضب، يسلمه إلى صبيان الشوارع طالبًا منهم أن يضعوا حبلاً حول عنقه ويجرّوه على أديم طرقات البلدة، وعلى الصخور الساخنة المدبّبة. ويتدفّق الدم من جسد بلال، ولكنه يظل يتمتم: "أَحدٌ، أَحد". وفيما بعد، عندما استقر المسلمون في المدينة المنوّرة، واستطاعوا العيش وعبادة الله في أمان نسبي، عيّن الرسول ﷺ بلالاً مؤذّنًا يدعو المؤمنين للصلاة، ولأنه إفريقي يصعب عليه النطق بحرف الشين في "أشهد"، فقد كان بعض مؤمني المدينة يضحكون على نطقه المعيب، ولكن الرسول ﷺ أنّبهم وأخبرهم عن مكانة بلال عند الله تعالى لقوة إيمانه التي أظهرها لأهل مكة وهو تحت نير تعذيبهم. ولقد قام أبو بكر بدفع ثمن عتق بلال، وحرّره مع الكثير من العبيد الآخرين فحقق لهم النجاة، ومنهم صُهيْب التاجر الناجح، الذي استمر أهل مكة يؤذونه ويسخرون منه حتى بعد عتقه. وعندما هاجر الرسول ﷺ من مكة ليستقر في مدينته المنوّرة، أراد صهيب أن يصحبه، فمنعه أهل مكة قائلين إنه لا يمكنه مغادرة مكة وقد حصل على ثروته منها، فسألهم: لو تخلى لهم عنها جميعًا هل يدعونه يمضي؟ فقبِل أهل مكة هذا العرض. وعلى هذا، بلغ صهيْب المدينة خالي الوفاض، ورأى الرسول ﷺ الذي استمع إلى قصته، فهنّأه وقال: "رَبح البيعُ أبا يحيى".

إن أغلبية هؤلاء العبيد الذين اعتنقوا الإسلام ظلوا ثابتين على إيمانهم ظاهرًا وباطنًا، ولكن القلة منهم كانت ضعيفة. ولما اشتدّت الفتنة

والتعذيب، رأى الرسول ﷺ عمّارًا يئنّ من الألم ويمسح دمعه. ولما اقترب منه الرسول ﷺ أخبره عمّار بأنه قد ضُرب ضربًا مبرحًا، وأُكره على أن يرجع عن الإسلام، فسأله الرسول ﷺ كيف يجد قلبه، فقال إنه مطمئن بالإيمان، فطمأنه الرسول ﷺ أن الله تعالى سوف يغفر لـــه ضعفه.

وأما ياسر، والد عمّار، وأمّه سميّة، فقد قتلهما الكافرون تعذيبًا. وفي إحدى المناسبات، حدث أن مرّ عليهم رسول الله وهم يُعذّبون، فقال لهم وقلبه يعتصره الحزن والألم من أجلهم: ''صبرًا آل ياسر إن موعدكم الجنة''. وقد تحققت الكلمات النبويّة لفورها، فقد سقط ياسر شهيدًا بسبب شدّة التعذيب، وقام أبو جهل بقتل زوجته سمية بحربة.

وكذلك زنيرة، وهي أمَة مؤمنة، فقدت عينيها بسبب التعذيب الذي نالته على أيدي المشركين.

وأبو فُكَيْهة؛ كان مملوكًا لصفوان بن أميّة، فكان يضعه على الرمال الحارقة، ويضع على صدره الصخور الساخنة الثقيلة، وتحت وطأة الألم الشديد كان لسانه يتدلى خارج فمه.

وعانى العبيد الآخرون أشكالاً وأنواعًا أخرى من سوء المعاملة، والتعذيب الشديد.

هذه الوحشية، وهذه القسوة الفظيعة، كانت فوق كل تحمّل، لكن المؤمنين الأوّلين تحمّلوها لأن قلوبهم اكتسبت قوة وثباتًا من اليقين الذي كان الله يتولاهم به كل يوم. كان القرآن ينْزل على الرسول ﷺ، ولكن الصوت الإلهي الذي يأتي باليقين كان يتَنَزّل على كل المؤمنين. وبدون

ذلك، لم يكن المسلمون بقادرين أبدًا على تحمّل ذلك التعذيب الوحشي الذي تعرضوا له. فقد هجرهم الزملاء، وتخلى عنهم الأصدقاء، وقاطعهم الأقارب، و لم يبق معهم إلا الله ﷻ، و لم يعد يهمهم أن يكون معهم أحدٌ سواه. ومن أجله ﷻ بدا كل تعذيب وتنكيل كأنه تكريم وتبجيل، وصار الأذى والتحقير كأنه ثناء وتوقير، وأصبحت الحجارة الحارقة كأنها نسمة الندى أو لمس الحرير.

أما المؤمنون من المواطنين الأحرار، فلم يكن نصيبهم من الوحشية أقلّ من العبيد؛ فقد تولى أولياء أمورهم من أهليهم وزعماؤهم تعذيبهم بأساليب شتى. كان عثمان بن عفان غنيًا في الأربعين من عمره، وعندما أجمعت قريش أمرها على اضطهاد كل من يُسْلِم، قام عمه الحَكَم بشدّ وثاقه وضربه. والزبير بن العوام؛ ذلك الغلام الشجاع الذي صار فيما بعد مسلمًا عظيمًا وقائدًا مقدامًا، كان عمه يلفه في حصير، ويسلط عليه الدخان من تحته، ويتركه يعاني من الاختناق وآلامه، ولكنه لم يتنكر قط لإيمانه، لقد وجد الحقيقة ولن يتخلى عنها مستسلمًا أبدًا.

أبو ذر الغفاري، سمع بالرسول ﷺ وذهب إلى مكة ليتحرّى الأمر. فحاول أهل مكة صرْفه عن ذلك قائلين إنهم يعرفون محمدا حق المعرفة، وإن حركته تهدف لأغراض شخصية. غير أن ذلك لم يؤثر في أبي ذر، وذهب إلى الرسول الكريم ﷺ واستمع منه مباشرة إلى الرسالة، ودخل في الإسلام. وتساءل أبو ذر عما إذا كان يمكنه أن يسر إيمانه، فرخّص لـــه الرسول ﷺ في ذلك إلى حين. ولكن حدث عندما كان يمرّ في طرقات مكة أن سمع جماعة من رؤساء مكة يسبّون الرسول ﷺ ويغتابونه

بخسّة، فلم يطق أن يظل على كتمان إيمانه، وأعلن صائحًا في الحال: "أشهد ألاَّ إله إلاَّ الله لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله". هذه الصيحة في جمع من الكافرين بدت لهم نوعًا من الوقاحة، فقاموا في غضب يضربونه حتى سقط مغشيًّا عليه. ومرّ عليهم العباس عمّ الرسول ﷺ الذي لم يكن قد دخل الإسلام بعد، فدفعهم عن الضحية قائلاً: "إن قوافل طعامكم تمرّ على قبيلة أبي ذرّ، وإذا ما غضبوا من أجل تعذيبه فإنهم يستطيعون تجويعكم حتى الموت". في اليوم التالي ظل أبو ذرّ في البيت، ولكنه في اليوم الذي يليه ذهب إلى نفس المكان، فوجدهم يقولون على الرسول ﷺ نفس القول المؤذي. فذهب إلى ساحة الكعبة، فوجد الناس يفعلون هناك نفس الشيء، فلم يملك نفسه وقام يعلن شهادة الإسلام في صوت جهْوَري. ومرة أخرى تعدّوا عليه وآذوه أشد الإيذاء. وتكرر نفس الأمر في مناسبة ثالثة، وبعدها غادر أبو ذرّ عائدًا إلى قبيلته.

والرسول الكريم ﷺ نفسه لم يُستثن من المعاملة الوحشية التي تلقاها المؤمنون. وفي إحدى المناسبات بينما كان يصلي، وضع جماعة من الكفار وشاحًا حول عنقه وشدّوه عليه حتى جحظت عيناه. ثم حدث أن جاء أبو بكر رضي الله عنه فأبعدهم عنه باكيًا وقال: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله"؟! وفي مرة أخرى كان الرسول ﷺ ساجدًا في صلاته، فجاءوا بأمعاء بعير وألقوها على ظهره، فلم يستطع النهوض حتى جاءت ابنته فاطمة وأزالت هذه الأثقال عنه. وفي حادثه ثالثة كان يمر بالطريق، فتبعته جماعة من الصبيان أخذوا يصفعون رقبته صائحين بالناس أنه

يدّعي النبوة. هكذا كان الرسول ﷺ يلقَى العداوة والكراهية من هؤلاء الناس، وكان يبدو في أيديهم بلا حول ولا قوة. كان الناس يرجمون بيت الرسول ﷺ بالحجارة من أسطح المنازل المجاورة، وكانوا يلقون على مطبخه الرّوَث والقاذورات ونفايات الحيوانات المذبوحة. وكثيرًا ما كانوا يحثون عليه التراب أثناء أدائه الصلاة، ولذلك كان يلجأ إلى مكان آمن إذا أراد الصلاة مع الجماعة.

هذه الوحشية التي كانت تُقترف ضد مجموعة ضعيفة بريئة من الناس، وضد قائدها الأمين الذي لا حول لـــه، لم تذهب هباء ولا ضاعت بغير فائدة. فقد رأى الكرام من الناس كل ما يجري وتأثروا به، فشعروا بشيء ما يجذبهم نحو الإسلام. حدث مرة في صباح أحد الأيام أن كان الرسول ﷺ يستند بظهره إلى الصّفا، وهو مرتفع صغير بجوار الكعبة، فمر عليه أبو جهل عدوّه اللدود، وأمطره بوابل من السباب الأثيم، و لم يقل الرسول ﷺ شيئًا ومضى إلى بيته. وكانت إحدى الإماء التي تعمل في البيت ترى ذلك المشهد المؤسف. وكان حمزة، عم الرسول ﷺ، رجلاً مقدامًا يهابه جميع أهل البلدة، وحدث أنه عاد ذلك اليوم من رحلة صيد، ودخل البيت معتزًّا بنفسه، يحمل قوسه على كتفه. فلما رأته الجارية التي لم تنس مشهد الصباح، قالت لـــه بشيء من السخرية، إنه يظن نفسه شجاعًا، ويتجوّل فخورًا بسلاحه، ولكنه لا يدري ما صنع أبو جهل بابن أخيه البريء في الصباح. واستمع حمزة إلى ما حدث، ومع أنه لم يكن مؤمنًا إلا أنه كان يتمتّع بنبل الخُلُق. ولعله كان قد تأثر برسالة الرسول ﷺ، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله يجهر باعتناقها. غير

أنه لما استمع إلى ما قام به أبو جهل من عدوان على الرسول ﷺ لم يقو على الانتظار، وتلاشى تردده حول الدين الجديد، وبدأ يشعر أنه قد انتظر طويلاً بلا داع، فتوجّه لفوره إلى الكعبة حيث كان رؤساء مكة يجتمعون ويتآمرون كعادتهم، وتناول قوسه وشج به رأس أبي جهل قائلاً: "أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول، فَرُدَّ ذلك عليّ إن استطعت". وقد صُعق أبو جهل لهول الموقف، فخفّ إليه أصدقاؤه ليعينوه ولكنه أوقفهم خوفًا من حمزة وقبيلته، وكان يرى أن قتالاً مفتوحًا بلا حدود سوف يكلف الكثير من الأرواح الغالية، واعترف أنه كان في الحقيقة هو الملوم عما حدث في الصباح (ابن هشام والطبري).

رسالة الإسلام

استمرت المعارضة تتصاعد، وفي نفس الوقت ظل الرسول ﷺ وأتباعه يبذلون كل جهد لإيضاح رسالة الإسلام لأهل مكة. كانت رسالة ثريّة الجوانب، وذات محتوى بالغ السمو، ليس فقط للعرب وحدهم بل للعالم بأجمعه. كانت رسالة من الله ﷻ، وكانت تقول:

إن الله خالق العالم هو واحد، ولا أحد غيره يستحق العبادة. وقد آمن به الأنبياء دائمًا وأبدًا إلها واحدًا، وعلّموا أتباعهم نفس الشيء. وينبغي على أهل مكة أن يتخلوا عن كل الأصنام والأوثان، ألا يرون أن الأصنام عاجزة عن ذبّ الذبابات التي تحط على القرابين الموضوعة عند أقدامها؟ وإذا اعتدى عليها أحد فإنها لا تردّ عن نفسها العدوان، وعندما يُوجّه إليها سؤال فلا تجيب عليه، وإذا طُلب منها العوْن فلا تُقدّمه. ولكن الله

الواحد الأحد يعين كل من يطلب عَونه، ويجيب كل من يدعوه في الصلاة. إنه سبحانه أخضع كل أعدائه، وأعزّ كل من تذلل أمامه. وعندما ينْزل نور من لدنه، فإنه يضيء عباده المخلصين. لماذا إذن غفل عنه أهل مكة وولّوا وجوههم إلى أوثان وتماثيل ميّتة وأضاعوا عندها حياتهم؟ ألا يرون أن غفلتهم عن الله تعالى وافتقادهم الإيمان بالله الحق الأحد قد جعلهم يؤمنون بالخرافات ويتخلفون في كل مجال؟ إنهم يجهلون ما هو طاهر وما هو نجس، وما هو صحيح وما هو خطأ، فلم يكرموا أمهاتهم، وعاملوا أخواتهم وبناتهم ببشاعة، وأنكروا عليهن حقوقهن. لم يحسنوا معاملة أزواجهم، وعذّبوا الأرامل، واستغلوا اليتامى، والفقراء، والضعفاء. وسعوا لبناء ثرواتهم على حساب خراب الآخرين. لم يكونوا يخجلون من الكذب والخيانة، ولا من السلب والنهب. في لوثة الميسر والخمر كانت سعادتهم، ولا يهتمون بالثقافة ولا بتقدّم أمّتهم. إلى متى يصرّون على إهمال الله الأحد الحق والمضي قُدُمًا في خسران يتبعه خسران، ومعاناة بعد معاناة؟ أليس لديهم طريق أفضل للإصلاح؟ أليس من الخير لهم أن يتخلوا عن كل شكل من أشكال استغلال الفرد للآخر، وأن يحفظوا الحقوق لأصحابها، وأن ينفقوا ثرواتهم على ما ينفع أوطانهم، وأن يحسنوا من نصيب الفقراء والضعفاء في الثروة والأجور، وأن يعاملوا اليتامى كأبنائهم، ويعتبروا حمايتهم واجبًا مفروضًا، وأن يعينوا الأرامل، وأن يشجّعوا الأعمال الصالحة في كل الجماعة الإنسانية، وأن يغرسوا العطف والرحمة وليس فقط العدل والمساواة؟ إن الحياة في هذا العالم يجب أن تكون مخصبة بالأعمال

الصالحة: اتركوا بعدكم آثارًا جميلة.. أنتم آخر الأمم، فلن تأتي بعدكم أمّة أخرى لتنمو وتحمل أثمارًا. هناك فضل في بذل العطاء للآخرين لا في الأخذ منهم. تعلموا أن تُسلموا نفوسكم لله تعالى لتكونوا أكثر قربًا منه. مارسوا إنكار الذات من أجل رفاقكم من الناس، فتضاعفوا بذلك رصيد أمنكم مع الله تعالى. صحيح أن المسلمين ضعفاء، ولكن لا يضلّنكم هذا الضعف ولا تنخدعوا به لتذهبوا بعيدًا، فالحق سوف يعلو وينتصر، وهذا هو حكم السماء. ومن خلال هذا الرسول سوف ينبثق على العالم فجر مقاييس جديدة، وتشرق شمس معايير جديدة لقياس الصالح والطالح، والحق والباطل. إن الرحمة والعدل سوف يعلوان، ولن يُسمح بالإكراه في أمر الدين ولا العبث به، وسوف تنمحي ألوان العذاب الوحشي الذي تتعرّض له النساء والعبيد، وسوف تقوم وتتأسس مملكة الله تعالى وتحل محل مملكة الشيطان.

وما إن بلغت هذه الرسالة أهل مكة، وبدأ أصحاب الفطرة الصالحة يتأثرون بها، حتى وقف كبار مكة موقفًا صارمًا مما كان يحدث، فذهبوا في وفد إلى عم الرسول أبي طالب وخاطبوه قائلين:

"يا أبا طالب إن لك سنًا وشرفًا ومنْزلة فينا، وإنَّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنَّا، وإنَّا والله لا نصبر على هذا مِن شتْم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيْب آلهتنا، حتى تكفّه عنَّا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين". (ابن هشام).

كان أبو طالب في مواجهة اختيار صعب. إذ كان من الصعب عليه أن يتخلى عن ابن أخيه، كما كان من الصعب عليه أيضًا أن يتبرأ منه

قومه. لم يكن العرب يُعوّلون كثيرًا على المال، ولكن كرامتهم وهيبتهم كانت في سيادتهم. كانوا يعيشون من أجل قومهم، ويعيش قومهم بهم، ولذلك فقد أصاب أبا طالب همٌ كبير. فأرسل إلى الرسول ﷺ وشرح له ما طلبه كبار القوم، وقال له والدموع تملأ عينيه: "يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا - الذي كانوا قالوا له - فابق عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق". كان الرسول ﷺ في تعاطف جليّ مع عمه، وترقرقت الدموع في عينيه وهو يقول له إنه لا يسأله أن يدع قومه، ولا يطلب منه أن يسانده، وإنما له أن يُسلمه ويتخلى عنه. ثم أقسم له قائلا:

"يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته". (ابن هشام والزرقاني)

هذا الرد الحازم الثابت، والقوي المستقيم، والصادق المخلص، جعل أبا طالب يفتح عينيه، فاستغرق في تفكير عميق. ومع أنه لم يكن يملك الشجاعة كي يؤمن، فقد رأى أنه كان ذا حظ عظيم أن يعيش حتى يرى هذا البيان العالي للإيمان، وهذا الاحترام البالغ للواجب. فالتفت إلى الرسول ﷺ وقال:

"اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلمك لشيء أبدًا". (ابن هشام)

الهجرة إلى الحبشة

عندما بلغ الطغيان أقصاه، جمع الرسول ﷺ أتباعه وأشار إلى الغرب، وأخبرهم عن أرض خلف البحر، لا يُقتل الناس فيها بسبب تغيير عقيدتهم، ويستطيعون عبادة الله بلا ترويع، ويوجد بها ملك عادل. واقترح عليهم أن يرحلوا إليها، فعسى أن يجدوا فيها الأمن والسلام. وأخذ بهذا الاقتراح طائفة منهم، رجالاً ونساء وأطفالاً، وذهبوا إلى الحبشة.

كانت الهجرة على مستوى محدود، وكانت مثيرة للشجن إلى حد عميق. فالعرب كانوا يرون أنفسهم حرّاسَ الكعبة المشرّفة، وهم كانوا كذلك فعلاً. ولذلك كان ترك مكة بالنسبة لهم أمرًا مؤلمًا مضنيًا، ولا يوجد عربي يمكن أن يفكر في ذلك إلا إذا أصبحت الحياة في مكة مستحيلة. ولم يكن أهل مكة ليسمحوا أيضًا بهذه الهجرة، فما كانوا ليتركوا ضحاياهم يفلتون من أيديهم لينالوا الحياة في مكان آخر. ولهذا اضطرت هذه المجموعة المهاجرة إلى كتمان استعداداتها للرحلة، والعمل على مغادرة البلدة حتى بدون كلمة وداع للأقارب والأصدقاء. ولكن مهما يكن من أمر، فإن مغادرتهم أصبحت معروفة لدى بعض الناس، وقد تركت فيهم آثارًا عميقة. فعمر بن الخطاب، الذي صار فيما بعد الخليفة الثاني في الإسلام، كان لا يزال كافرًا، وكان عدوًّا لدودًا يضطهد المسلمين. وتصادف أن التقى بمجموعة من الأفراد المهاجرين، ومنهم امرأة تُدعى أم عبد الله. وعندما رأى عمر الأمتعة محزّمة، والأدوات المنْزلية محمّلة على الإبل، فهم للتوّ أنهم فريق يغادر مكة ليلجأ

إلى مكان آخر. فسأل عمر: "أراحلون أنتم"؟ فأجابت أم عبد الله: "بلى، إن الله معنا، وسنذهب إلى بلاد أخرى، فقد عذبتمونا هنا ولن نعود حتى يجعل الله لنا يسرًا". فتأثر عمر وقال: "ليكن الله معكم". وكان في صوته نبرة تهدّج، فقد ملأ هذا المشهد الصامت قلبه بالحزن والأسى.

وعندما عرف أهل مكة بالأمر أرسلوا جماعة للمطاردة، وقد وصلت هذه الجماعة إلى ساحل البحر، ولكنها وجدت المهاجرين المسلمين قد ركبوا البحر وغادروا البلاد إلى الحبشة. ولما عجزوا عن اللحاق بهم، قرر أهل مكة إرسال وفد إلى الحبشة لإثارة الملك ضد اللاجئين، ولإقناعه بتسليمهم ثانية إلى أهل مكة. وكان عمرو بن العاص أحد أعضاء هذا الوفد، وقد أسلم فيما بعد وقام بفتح مصر. وذهب الوفد إلى الحبشة والتقوا بالملك وتآمروا مع الحاشية، ولكن تبين أن الملك شديد المراس. ورغم أن ضغط الوفد وحاشية الملك الخاصة كان حريًّا أن يؤثر عليه، فإنه رفض تسليم المسلمين اللاجئين إلى مضطهديهم، فعاد الوفد بخُفَّي حنين خائبين. ولكنهم دبّروا في مكة خطة أخرى للتعجيل بعودة المسلمين من الحبشة، فقد أذيعت في القوافل الذاهبة إلى الحبشة إشاعة تقول إن مكة كلها قد قبلت الإسلام. وعندما بلغت الإشاعة الحبشة، عاد كثير من المسلمين في بهجة إلى مكة، ولكنهم فوجئوا عند وصولهم أن الخبر الذي بلغهم كان مفتعلاً. فعاد بعضهم ثانية إلى الحبشة، وقرر البعض البقاء، ومن بينهم عثمان بن مظعون وهو ابن أحد سادات مكة. وقد دخل عثمان في جوار أحد أصدقاء أبيه وهو الوليد بن المغيرة، وبدأ

يعيش في أمان. ولكنه رأى المسلمين الآخرين يعانون الاضطهاد القاسي والظلم البالغ، فجعله ذلك يحس بالحزن والبؤس والأسى، فذهب إلى الوليد وردّ إليه جواره. لقد أحسّ أنه لا يصحّ له أن ينعم بالحماية بينما يظل بقية المسلمين في معاناة. وقد أعلن الوليد ردّ الجوار إلى بقية أهل مكة.

وفي أحد الأيام كان لبيد بن أبي ربيعة، وهو شاعر من كبار شعراء العرب، يجلس بين سادات مكة، يقرأ عليهم شعره، فقال البيت التالي:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيـــم لا محالـــة زائل

ويعني البيت أن كل أنواع النعيم لا بد أن تكون لها نهاية، فقام عثمان بالاعتراض بجرأة عليه قائلاً: "إن نعيم الجنة لا يزول". وإذا بلبيد الذي لم يتعوّد الاعتراض الجريء يفقد رزانته ويقول: "ما كان ضيفكم يُضام هكذا من قبل، فمتى حدثت هذه البدعة فيكم يا معشر قريش"؟ ومن أجل تهدئته نهض أحد الحضور وقال: "أتمم يا لبيد ولا تبال بهذا الأحمق". وأصرّ عثمان على أنه لم يقل شيئًا يوصف بالحمق، فوثب الرجل مغضبًا على عثمان وسدّد إليه لكمة أصابت عينه. كان الوليد حاضرًا، وكان صديقًا مقرّبًا لوالد عثمان، ولم يتحمّل أن يرى معاملة كهذه لابن صديقه الراحل. غير أن عثمان لم يكن تحت حمايته المعلنة، والعادة العربية يومها تمنعه من التدخل، ولذا لم يستطع أن يفعل شيئًا. وقال وهو يعاني من الغضب والألم في نفس الوقت: "يا ابن أخي! ألم تكن عينك غنية عن هذا لو أنك لم تردّ عليّ جواري"؟ فرد عثمان: "والله إن عيني الأخرى لفقيرة إلى ما أصاب أختها في سبيل الله. ولتعلم أنه طالما ظل

الرسول ﷺ يعاني فلا نريد أن ننعم نحن بالسلام". (السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٤٨)

عُمر يقبل الإسلام

في ذلك التاريخ، وقعت حادثة أخرى على جانب كبير من الأهمية. فقد كان عمر بن الخطاب، الذي صار فيما بعد ثاني خلفاء الإسلام، لا يزال واحدًا من أشد الأعداء وأشرسهم نقمة على الإسلام. وأحسّ عمر أنه لم تُتّخذ بعد الخطوة الحاسمة ضد الحركة الجديدة، فقرّر أن يأخذها هو بأن يضع حدًّا لحياة الرسول ﷺ. وخرج من بيته يحمل سيفه بغير جرابه، فلقيَه صديق له، أخذته الدهشة للحالة التي رآه عليها فسأله عما ينوي أن يفعله، فقال عمر: "أريد أن أقتل محمدًا". فقال له: "أتظن بني هاشم تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمدًا، ألا تدري أن أختك وزوجها قد أسلما"؟

ونزل عليه الخبر نزول الصاعقة، وانقبض صدره بشدة فقرر أن يبدأ بأخته وزوجها أولاً. وعندما بلغ بيت أخته سمع صوت تلاوة في الداخل، وكان الصوت هو صوت "خبّاب بن الأَرَت" يعلمهم القرآن الكريم، فدلف عمر إلى البيت مسرعًا. وأحسّ خبّاب بريبة من الخطوات المتسارعة وهي تقترب فاختبأ. وقامت فاطمة أخت عمر بتنحية الأوراق القرآنية جانبًا. وواجهت أخاها هي وزوجها، فقال عمر: "لقد سمعت أنكما صبأتما"، يقصد أنهما تخليا عن دينهما. ورفع يده ليصك زوجها الذي كان من أبناء عمومته، فألقت فاطمة نفسها على زوجها كي

تحول بينه وبين عمر، فهبطت الضربة على وجه فاطمة، وأصابت أنفها التي أخذت تنْزف الدماء بغزارة. ولكن الضربة زادت من شجاعة فاطمة، فقالت: "نعم، لقد أسلمنا، ولن ندع هذا الدين، فافعل ما بدا لك". كان عمر شهمًا مع خشونته تلك. وقد جعله وجه أخته المصبوغ بالدم من أثر يده يشعر بالندم، فإذا به يتحوّل إلى شخص مختلف تمامًا. طلب منهم أن يرى أوراق القرآن التي كانوا يقرأونها، فرفضت فاطمة خشية أن يمزقها ويلقي بها، فوعد عمر أنه لن يفعل. ولكن فاطمة قالت إنه غير طاهر، فعرض عمر أن يغتسل. وبعد أن تطهّر وهدأت نفسه، تناول الصحائف القرآنية في يده وكانت تحوي جزءًا من سورة طه. فراح يقرأ فيها إلى أن وصل إلى قوله تعالى:

﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ۞ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ (طه: ١٥-١٦)

إن هذا التوكيد الجازم لوجود الله تعالى، وهذا الوعد الساطع بساعة قادمة حتمية، يؤسس فيها الإسلام عبادة حقيقية مكان تلك التي اعتادت عليها مكة، كل ذلك مع حشد من الأفكار الأخرى المرتبطة بها، لابد أنها جميعًا حركت مشاعر عمر، فلم يملك نفسه أمام تدفق ينبوع الإيمان في قلبه، وقال: "ما أعجب هذا الكلام وما أروعه"! فخرج خبّاب من مكمنه وصاح: "فليشهد الله! لقد سمعتُ رسول الله بالأمس فقط يدعو الله أن يهدي للإسلام عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام. وأرجو أن تكون هدايتك ثمرة دعائه". وعقد عمر العزم على اعتناق الإسلام، وسأل أين يكون الرسول ﷺ، وعلى الفور اتخذ طريقه إليه في دار الأرقم

بن أبي الأرقم، وكان قد أخذ سيفه معه. وعندما طرق الباب، رأى الصحابةُ عمرَ من شقوق الباب، فخشوا أن يكون ثمة نية سوء لديه، ولكن الرسول أمرهم أن يدعوه يدخل. ودخل عمر والسيف لا يزال في يده. فقال له الرسول ﷺ سائلاً: "ما جاء بك يا ابن الخطاب"؟ فقال عمر: "يا رسول الله، لقد جئت لأسلم". فكبَّر رسول الله ومعه الصحابة: "الله أكبر.. الله أكبر"، وردّدت قمم الجبال صدى الصوت. وانتشرت أخبار اعتناق عمر الإسلام كالنار في الهشيم. ومن اليوم فصاعدًا، أصبح عمر يعاني من الاضطهاد، شأنه في ذلك شأن بقية المسلمين، بعد أن كان هو الذي يقوم باضطهاد المسلمين وكانوا يخشون بأسه. وأصبح يجد عذوبة في العذاب من أجل الإسلام، كما كان يجد عذوبة في تعذيب المسلمين من قبل. وعاد يسير في طرقات مكة ويسمع من أهلها السباب والتحقير دون انقطاع.

اشتداد الاضطهاد

اشتدّ الاضطهاد، وأصبح أكثر خطورة وأشدّ قسوة بشكل يصعب احتماله. وغادر كثير من المسلمين مكة، والذين بقوا صاروا يلقون معاناة أشدّ وأكثر من ذي قبل. ولكن المسلمين لم يتزحزحوا قيد أنملة عن طريقهم الذي اختاروه. وظلت قلوبهم تسكنها الشجاعة، وظل إيمانهم ثابتًا كالطود. كان حبهم لله تعالى يزداد بقدر كراهيتهم لأصنام مكة. واتخذ الصراع صورة خطرة لم تحدث من قبل. ودعا أهل مكة إلى اجتماع كبير آخر، وقرروا فيه المقاطعة التامة للمسلمين. فلم يعد أهل

مكة يتعاملون بأي شكل من الأشكال مع المسلمين كما كان الحال من قبل، فلا يشترون منهم شيئًا ولا يبيعونهم شيئًا على الإطلاق. وقد اضطر الرسول ﷺ وأسرته وعدد من أقاربه الذين وقفوا إلى جانبه، رغم أنهم لم يكونوا مسلمين، إلى اللجوء إلى مكان منعزل يُسمى شعاب أبي طالب لأنه كان يملكه، وانحصروا هناك بدون مال، وبدون وسائل الحياة الضرورية، وبلا زاد مخزون. وقد عانى الرسول ﷺ وعائلته وأقاربه شدة لا يمكن التعبير عنها تحت هذا الحصار الذي دام لسنوات ثلاث، لم تخفّ خلالها حدّته. وفي النهاية، ضاق بعض الكرام من أهل مكة بهذا المشهد، وثاروا في وجه هذه الشروط المجحفة الظالمة، وذهب خمسة منهم إلى الأسرة المحاصرة لإنهاء المقاطعة وطلبوا منهم الخروج، فخرج أبو طالب وعنّف قومه على هذه القسوة. وعرفت مكة كلها بثورة الرجال الخمسة، غير أن المشاعر الطيبة عادت لتثبت وجودها في الإنسان ثانية، وقرر أهل مكة أنه يجب عليهم إلغاء المقاطعة الوحشية. ولكنهم لم يستطيعوا إلغاء آثارها، ففي غضون أيام قلائل لقيَت السيدة خديجة.. زوج الرسول ﷺ المؤمنة المخلصة ربها، ولحق بها أبو طالب بعد شهر.

وهكذا فقدَ الرسول الكريم ﷺ مساندة وصداقة السيدة خديجة، وفقدَ الرسول ﷺ والمسلمون معه المساعي الحميدة لأبي طالب. وبطبيعة الحال، فقد أدّى موتهما إلى فقْد المسلمين بعض التعاطف العام. وقد بدا في أول الأمر أن أبا لهب، العم الآخر للرسول ﷺ، سيقف معه، بعد أن أثرت فيه صدمة وفاة أخيه، وكانت وصيّته وهو على سرير الموت لا تزال حيّة في مخيّلته. ولكن أهل مكة نجحوا في استعدائه على الرسول ﷺ

مستغلين تأثير العادة وقوة التقاليد، فقد كانت تعاليم الرسول ﷺ تنص على أن الكفر بوحدانية الله عار وعورة وتجلب العقاب في الآخرة، وكان هذا التعليم يتعارض مع كل ما تعلموه من آبائهم الأولين. وهكذا قرر أبو لهب أن يأخذ جانب معارضة الرسول أكثر من ذي قبل. وأصبحت العلاقات بين المسلمين وأهل مكة متصدعة، وقد أدّت ثلاث سنوات من المقاطعة والحصار إلى اتساع الهوّة بينهما. وصار الاجتماع والدعوة إلى الإسلام والحوار في حكم المستحيل. ولم يعبأ الرسول ﷺ بالمعاملة السيئة ولا بالاضطهاد، فلم يكن لذلك اعتبار طالما أنه يستطيع أن يلتقي بالناس ويحادثهم، ولكن بدا له الآن أنه لن يستطيع أن يحقق ذلك في مكة. وبالإضافة إلى هذه العداوة العامة، وجد الرسول ﷺ أنه لا يستطيع الظهور في أيّ مكان عام أو في الطرقات، لأنه إذا فعل فإنهم يحثونه بالتراب ويعيدونه إلى داره. وقد عاد مرة إلى بيته ورأسه مكسيّ بالتراب، فبكت ابنته فاطمة وهي تنفض التراب عنه، فقال لها الرسول ﷺ: ''لا تبكي يا بنيّة، فإن الله مانع أباك''. إن المعاملة المهينة لم تكن هي ما يزعج الرسول ﷺ، بل لعله كان يرحب بها كدليل على الاهتمام برسالته. فعلى سبيل المثال، حدث في يوم من الأيام أن كاد لـــه أهل مكة مكيدة، إذ لما خرج من بيته ومر في الطرقات، لم يجد أحدًا من أهل مكة يكلمه ولا يردّ عليه، وفي نفس الوقت لم يزعجه أحد بمعاملة سيئة من أي نوع، فعاد الرسول ﷺ إلى بيته مبتئسًا، حتى أتاه صوت الله تعالى يطمئنه ويخرجه إلى قومه مرة أخرى.